الطبعة الأولى: ٢٠٠٠ نسخة

١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ م

١٤١٥ ـ ١٤١٦ هـ

دار القاهرة ٨ شارع الجمهورية

القاهرة ـ مصر

هاتف وفاكس: ٣٩١٤٩٦

Dar An-Nahda Al-Islamiyya
P.O. Box 155199
Basta, Beirut - Lebanon



دار النهضة الإسلامية
ص.ب. ١٥٥١٩٩
البسطة، بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله القائل في كتابه الكريم: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وأمره أن يبيّن للناس ما نزل إليهم. فبلّغ الرسالة وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة، ولم تأخذه في الله لومة لائم. ولم يأل جهداً في بيان الكتاب مفصلاً لمجمله، مخصصاً لعمومه، مقيداً لمطلقه، ملحقاً فروعاً بأصول. فكانت سيرته صلى الله عليه وآله وسلم شرحاً وتفصيلاً للقرآن الذي يتنزل عليه منجماً على الوقائع والحوادث ومقتضىٰ الأحوال. بل انه كان يتعجل في الأداء، حتى قال له ربه: ﴿**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضىٰ إليك وحيه**﴾ وقال: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن**

علينا بيانه﴾ [سورة القيامة] وقال في سورة الفرقان: **﴿تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾** وقال في نفس السورة: **﴿ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا﴾** ومن هنا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى، قد أنزل هذا الكتاب الكريم على صدر سيد المرسلين ليبلغه للناس، ويشرح معانيه، ويوضح ما تضمنه هذا الكتاب من عقائد وأحكام. إلاّ أن الله سبحانه لم ينزل هذا الكتاب جملة واحدة ثم يختار رسول الله ما يناسب الوقائع والأحداث والبلاغ والرد على الخصوم وإنما أنزله منجماً كما جاء في سورة الفرقان كذلك: **﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾**.

ومن هنا كان النظر إلى سور القرآن وآياته بحسب ترتيب نزولها يعطي نوراً ساطعاً على سير الدعوة، والمواضيع التي كانت تتناولها، والعقائد الفاسدة التي كانت ترد عليها وتدحضها. وتفضح أئمة الكفر وتصديهم للدعوة، منذ أيامها الأولى. ثم المراحل التي مرت بها.

بالاضافة إلى بيان فساد العلاقات القائمة في ذلك المجتمع، والعادات والتقاليد السيئة التي كان الناس يمارسونها.

وبعبارة أخرى أقول بأن النظرة العميقة المستنيرة لكتاب الله باعتباره هو الرسالة المنزّلة على رسول الله، أي هو كتاب دعوة. إن النظرة إليه من هذه الزاوية توضح لنا بشكل قاطع سيرة رسول الله. فقد تعددت الأفهام للسيرة، وذهب الدعاة مذاهب شتىٰ وكلٌ يدعي بأنه يسير على سيرة رسول الله في الدعوة. فالقرآن لم يختلف فيه أحد من المسلمين، والاختلافات في ترتيب النزول اختلافات يسيرة، لا تؤثر على فهم السيرة. خصوصاً وأن السور المكية يكاد أن يكون هناك اجماع عليها إلاّ من ثلاث أو أربع سور.

أما ما تتضمنه السور والآيات. من عقائد، وردود على عقائد الكفر، والتصدي لأئمة الكفر، والتنديد بالعلاقات الفاسدة، والعادات والتقاليد الباطلة فلا يختلف فيها أحد. وحين تنظر إلى هذه المواضيع وربطها في

قائمة ترتيب نزولها يتبيّن لنا متى حدثت مثل هذه الوقائع. لأن هذه السورة أو الآيات المختصة بهذه الواقعة أو الحادثة تنزلت عند حصول هذه الواقعة.

إنني أستعين الله تعالى أن يمكنني من القاء نظرة دقيقة على السور المكية بحسب ترتيب نزولها، وفهم المواضيع والعقائد والأحكام الشرعية إن وجدت ـ حيث أن السورة المكية لم تتضمن إلاّ النزر اليسير من الأحكام الشرعية.

كما انني أستصرخ همم الشباب والمفكرين من أبناء هذه الأمة، بل دعاة الاسلام بشكل خاص وعودة الإسلام للحياة أن يعيدوا النظر إلى كتاب الله باعتباره كتاب الدعوة التي سار عليه رسول الله ﷺ. فتفهم السيرة النبوية الشريفة على ضوء كتاب الله وترتيب نزوله.

إن هذه المحاولة ليست تفسيراً لكتاب الله، كما أنها ليست أحاسيس ومشاعر تنتاب المتدبر لكتاب الله، ولا هي بحثاً في اثبات أن هذا القرآن كلام الله الذي أنزله على قلب المصطفى ولا هي ابراز لبعض جوانب البلاغة فيه،

لا ليست شيئاً من ذلك. حيث أن سلفنا الصالح قد أجاد وأبدع في تلك الجوانب. وإنما هي محاولة لفهم السيرة النبوية من القرآن الكريم باعتباره كتاب الدعوة الاسلامية الذي سار عليه رسول الله يبيّنه ويفصّله.

ولا يقال إن مسألة المكي والمدني قد انتهت، وآيات الكتاب يستدل بها بغض النظر عن كونها مكية أو مدنية، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا**﴾ [سورة المائدة]. ورسول الله ﷺ يقول: «**حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة**» لا يقال ذلك، لأن المسألة هنا ليست بحثاً فيما يجوز أو لا يجوز، أي ليست بحثاً في التشريع، وإنما هي نظرة في السور المكية بحسب نزولها لمعرفة المراحل التي مرت بها الدعوة، والمواضيع التي كانت تتناولها منذ مراحلها الأولى، حتى اقامة الدولة في المدينة. وذلك انطلاقاً من إيماننا بأن تلك السور والآيات كانت تتنزل على الوقائع والأحداث، والرد على الخصوم، من مثل ذلك الذي جاء

لرسول الله ﷺ ومعه عظمة بالية، وقد طحنها بيده ونفخها بوجه رسول الله قائلاً: «من يحيي العظام وهي رميم» نزل قوله تعالى: ﴿أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ أو ما يمكن أن نفهمه من سورة المسد، حين تعرف ترتيبها فنجد أنها من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وبمعرفة سبب نزولها، ندرك أن الدعوة لم تكن سريّة في يوم من الأيام كما تعرف منها أن أبا لهب وهو عم رسول الله كان من ألدّ أعداء الدعوة منذ أيامها الأولىٰ، هو وزوجته حمالة الحطب شقيقة أبي سفيان.

فإن كان عداء أبي جهل حسداً وغيرة وعصبية مقيته دفعت بني مخزوم إلى عداء بني هاشم. كما قال في حديث له مع النضر بن الحارث. حين اتهم النضر رسول الله ﷺ بالكذب، فقال أبو جهل: «والله ما كذب محمد قط، ولكن كنا وبني هاشم كفرسي رهان. أطعمنا أطعمنا سقوا

سقينا. والآن منهم نبي فأنىٰ لنا بنبي. فإن كان الحسد والعصبية قد دفعا أبا جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم للمقاومة. فما الذي دفع أبا لهب وزوجته لمثل هذا الموقف، مع أنه كان قد خطب ابنتي رسول الله لولديه. ولما بعث رسول الله ﷺ فسخ الخطبة وناصبه العداء.

وقد نزلت السورة بهذا الهجوم الحاد على أبي لهب وزوجته. ولم يراع رسول الله ﷺ أواصر القرابة من أبي لهب، ولم يقم وزناً لمكانته الاجتماعية. مثل هذه الواقعة تلقي ضوءاً نيراً على موقف الدعوة من خصومها منذ اليوم الأول مهما كانت مكانتهم الاجتماعية، أو قرابتهم من الدعوة وحملتها.

إن الغاية من هذا البحث معرفة سير الدعوة والأمور التي كانت تتعرض لها أثناء سيرها، فقد التبس على الدعاة مثل هذا الأمر. فمن قائل يقول: علينا تركيز العقيدة أولاً، حتى إذا تمت الكتلة واشتد سوقها تعرضت إلى المواضيع الأخرىٰ. وآخر يقول: علينا أولاً بتربية الفرد التربية الإسلامية الصحيحة ثم بعد ذلك الانتقال إلى

الأسرة فالمجتمع. وغيره يقول: إن أهم ما في الأمر هو تركيز الناحية الخلقية في المجتمع، فالأخلاق هي كل شيء، مستدلاً بقول الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويقول رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت متمماً لمكارم الأخلاق**». وغيره يقول: علينا بالدعوة إلى الله. ولا دخل لنا بالسياسة أو الحكم، فالله سبحانه يأتي بالنصر متى شاء. وهكذا، والكل يدعي أن هذه هي طريقة رسول الله ﷺ، وينقب في السيرة ليجد فيها دليلاً يدعم فيها رأيه.

ولما كان القرآن الكريم لا يختلف فيه اثنان. من حيث أنه هو الرسالة التي قام رسول الله ﷺ بتبليغها، وأنه كان يتنزل منجماً حسب الوقائع والأحداث، فالنظرة إليه من هذه الزاوية تري بكل صراحة ووضوح كيف سار رسول الله في دعوته، والمواضيع التي كان يعالجها،

والعقائد التي يركز على توضيحها. وكلنا نؤمن بوجوب اتباع طريقة الرسول ﷺ لقول تعالى: **﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة﴾** وقوله أيضاً: **﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾**.

هذا ما أردته في هذا البحث مناشداً مرة أخرى جميع الدعاة أن يعيدوا النظر فيما هم عليه، وأن يتناولوا هذا الكتاب الكريم باعتباره كتاب دعوة، كما سبق لسلفنا الصالح من تناوله في التشريع، وأصول الدين، والبلاغة، وما احتواه من علوم ومعارف. فقد كانت تلك البحوث والكتب هي الأمور التي كان المجتمع بحاجة إليها ولم يكن الناس بحاجة إلى مثل هذا البحث الذي نحن بصدده، فالاسلام قد وجد في واقع الحياة، ورايته ترفرف على مشارق الأرض ومغاربها، وجيوشه تضرب أبواب دول الكفر في كل مكان. أما الآن فنحن بأمس الحاجة لمعرفة كيف سار رسول الله ﷺ، للسير عليها والوصول إلى نفس النتائج التي وصل إليها. والله سبحانه وتعالى قد

وعدنا بالنصر فقال: **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾**.

أستعين الله أن يمكنني من إبراز بعض الجوانب في هذا البحث: **﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**.

حافظ صالح

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

أجمع العلماء أو كادوا أن سورة العلق هي أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حين كان يتحنث في غار حراء، وكان أول ما نزل منها قوله تعالى: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم. اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم﴾**. ثم تلاه بعد ذلك. وصف لحقيقة الانسان وطغيانه حين يحس بأنه في غنى غير محتاج لأحد. متناسياً أن مرده إلى الله سبحانه وتعالى، قال: **﴿كلا إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعىٰ﴾** ثم يتنزل الجزء الباقي منها بعد بدء الدعوة، وتصدي أئمة الكفر لها. فقال

تعالى: ﴿أرأيت الذي ينهىٰ عبداً إذا صلى... الآيات﴾ إلى آخر السورة.

توجهت الآيات الأولىٰ إلى حامل الدعوة الأول، إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، كما تتوجه الآن لأي حامل دعوة، ترشده إلى الطريق القويم في اكتساب العلوم والمعارف التي تمكنه من حمل رسالته، وتأديتها بأمانة واخلاص، متوجهاً إلى ربه بارئه ومعلمه.

فالنظرة في هذا المقطع لحامل الدعوة اليوم تريه وجوب الاستزادة من العلم والمعرفة المتعلقة بهذا الانسان. فهو موضع البحث، ومناط التكليف، فلا بد من معرفة هذا الانسان معرفة تُيسّر للداعية كيفية مخاطبته، فهو المخلوق الوحيد الذي انضوى الوجود في كيانه فتركيبه المادي من عناصر هذا الوجود. فقد خلق من التراب، وللتراب يعود، وقد امتاز عن تلك الجمادات، بالروح التي نفخها الله فيه، فاشترك مع الكائنات الحية الأخرى بالطاقة الحيوية التي وجدت فيه، فهو يأكل ويشرب وينمو ويتكاثر كغيره من الكائنات الحيّة، إلاّ أن

الله سبحانه، خالقه وبارئه قد أكرمه ومنّ عليه بالعقل والادراك، تلك النعمة العظيمة التي امتاز بها عن سائر الكائنات الحيّة. فإن استغل هذه الطاقة، وسار بحسبها، واهتدى بها إلى أنه عبد لله تعالى كان أفضل من الملائكة، وان تخلى عنها وصار عبداً لغرائزه وحاجاته صار أحط من الحيوانات الدنيا. فبهذه النعمة ارتقى الانسان وسخرت له الموجودات من جمادات أو حيوانات، يستعملها كيف يشاء.

كما أنها ترشد بالنظر فيها إلى التفكير في العلم والتعلم. فالانسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ويبدأ بالتقليد واستيعاب ما يعلمه أبواه، فهما المسؤولان عن غرس أول بذور المعرفة في نفسه، وهنا تقول الآية: ﴿علم الانسان ما لم يعلم﴾ فالظاهر في عملية المعرفة واكتساب العلم أن مردها التعليم والاكتساب من الأهل ابتداءً ثم المدرسة والمجتمع وبالتالي إعمال العقل للتنمية والاستنباط من تلك الأسس. فهل معنى قوله تعالى علّم الانسان ما لم يعلم، تعني أن الله سبحانه وتعالى قد جعل

في هذا العقل خاصية الدراسة والبحث والتنقيب وبالتالي استنباط أمور لم تكن معروفة من قبل أم أن المسألة تذهب لأبعد من ذلك، خصوصاً وقد وجد من يدعي أن العقل والادراك إنما يتم بانعكاس الواقع على الدماغ. فهي عملية آلية تتم بين الواقع المحسوس، والدماغ، سواء قيل بالانعكاس أو بنقل الواقع بواسطة الحواس إلى الدماغ فينتج من ذلك الفكر والادراك. هذا ما يدعيه القوم. والله سبحانه وتعالى يقول: **﴿علم الانسان ما لم يعلم﴾** فهل نقف عند حد أنه قد جعل في الدماغ والحواس خاصية الربط والاستنتاج فتصل إلى احداث فكر جديد، أم أن المسألة أبعد من ذلك. وأن القول بأن عملية التفكير والوصول إلى فكر جديد، لا يكفي فيها وجود خاصية الربط بين الواقع والدماغ، بل انها تحتاج إلى معلومات سابقة تفسر الواقع، وبدون هذه المعلومات السابقة لا يمكن أن يتم ادراك أو تفكير، وتبقى المسألة مجرد إحساس ليس غير. ومن السهولة بمكان إثبات هذه الحقيقة أمام القائلين بأن الفكر هو عملية انعكاس المادة

على الدماغ وبطلان تلك الفكرة. ومن ثم يرد السؤال فمن أين أتت المعلومات السابقة للإنسان الأول؟ وهنا الجواب. **﴿علم الانسان ما لم يعلم﴾** وهي من مثل قوله تعالى: **﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾**[1]. بل وأكثر من ذلك، مما هو ملموس في كل يوم بل وفي كل لحظة يَلد فيها انسان جديد. فالملاحظ أن المولود الجديد ينطق باللغة التي يتكلم بها من يقوم على تربيته، عربياً كان أم أعجمياً. ولو امتنعنا عن مكالمة طفل ما حتى كبر وبلغ أشده ولم يكلمه أحد، فإنه لا يستطيع أن يتكلم، مع أن آلة الكلام سليمة عنده. وأقرب مثال عليه من يلد أطرش، أو أصيب بالطرش وهو صغير، فإنه يصبح أبكماً «أخرس» لا يستطيع الكلام مع أن آلة الكلام سليمة جداً. وهنا نرد المسألة إلى الانسان الأول من علمه النطق؟ من علمه الكلام؟ من علمه البيان؟ وفي هذا البرهان الساطع والدليل القاطع على أن خالق هذا الانسان هو الذي علم الانسان الأول ما لم يعلم **﴿علم الانسان ما لم يعلم﴾**

(١) سورة البقرة ٣١.

﴿خلق الانسان * علمه البيان﴾[١].

إذن فإن النظرة العميقة لهذا المقطع من السورة بالنسبة لحامل الدعوة توجب عليه الاستزادة من المعارف التي تمكنه من أداء رسالته، وحمل الأمانة التي أوجب الله عليه حملها. وتوجب عليه بذل الوسع في فهم الأفكار التي يريد بيانها للناس ووسيلة ذلك القراءة، أو التلقي الفكري لمن لم يستطع القراءة فالقصد من القراءة هو العلم والمعرفة، على أن يكون الانسان هو موضوع البحث والدراسة. فهو وحده مناط التكليف، والبحث في وجوده، ومن أين جاء، وإلى أين يسير، وما الذي ينتظره، وما عليه من واجبات في هذه المرحلة، وما له من حقوق، هذه هي المشكلة التي تجابه هذا الانسان، والداعية هو الجهة المسؤولة عن فهم هذه المشكلة، والتماس حل لها.

قلنا إن المشكلة هي معرفة هذا الانسان الذي هو

---

(١) سورة الرحمن ٣/ ٤.

موضع البحث. ولذا فقد جاء المقطع الثاني من السورة ليلقي الضوء على هذا الانسان ويعرفنا على جانب من جوانب حياته، وكيف أنه قد يصبح أسير نزواته، وعبد شهواته، فتقرر أن هذا الانسان الذي احتوىٰ الكون في كيانه، يصيبه الطغيان والغرور، حين يجد نفسه قد استطاع أن يسدّ الثغرة التي كانت تقض مضجعه، وتقلق باله، فهو في إحساسه الفطري ـ رجعاً لغريزة البقاء ـ يشعر بالحاجة والعوز. فإذا أحس أنه استطاع اشباع هذه الجوعة الفطرية، وأبعد شبح العوز والفاقه عن مخيلته، وقع تحت رجع غريزي آخر هو السيادة وحب الظهور، إن هذا الرجع الغريزي وأعني السيادة وحب الظهور من أخطر الأمراض الفتاكة التي تنتاب الانسان، فتشل عقله إلاّ من التفكير بتحطيم كل ما يقف في وجه رغبته، أو يمنعه من الوصول إلى غايته. فالكبرياء رداؤه، والتعالي على الناس ديدنه، واضطهاد من دونه صفة ملازمة له. إنه قد تركز في ذهنه، وهيمن على تفكيره أنه بالمال يستطيع الوصول إلى كل ما يبتغي، ويزيل من طريقه بالمال كل عقبة. قال

تعالى: ﴿كلا إن الانسان ليطغى، أن رآه استغنىٰ﴾ تلك حقيقة يقررها خالق هذا الانسان، فهو الذي أودع فيه غريزة البقاء، وجعل حب السيادة رجع لها. فغريزة البقاء تعني حب البقاء والمحافظة عليه، نزولاً عند قبول الرق والعبودية إن كانت هي السبي للحفاظ على البقاء، أو صعوداً للوصول إلى أقصى حالات الطغيان إلى أن يقول كما قال فرعون: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**[١]. وعلى ذكر فرعون فقد قال رب العالمين: **﴿وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد﴾**[٢]. على ذكر هذا الطاغية مقارنة مع طغاة اليوم، فقد يكون فرعون أهون حالاً وأقل شأناً طغياناً. فإن فرعون هذا قَبِل التحدي من موسى وأخيه عليهما السلام. واستمع إليهما وناقشهما فيما قالا. ثم استشار بطانته في شأن موسى وأخيه ـ ويبدو أنه كان ديمقراطياً بل أكثر ديمقراطية من حكام هذا العصر ـ وكانت بطانته أرقى فكراً من بطانة

(١) سورة النازعات ٢٤.
(٢) سورة الفجر ١٠ ـ ١٢.

حكام هذا العصر. فلم تكن نتيجة الاستفتاء ٩٩،٩٩. فجاء الرد من البطانة، أو قل مجلس النواب أو الأعيان أو كليهما. جاء الرد: **﴿أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين﴾**[١] نعم قبل الملأ من آل فرعون عنصر التحدي، ومقارعة الحجة بالحجة. ولم يكن التحدي سراً أو على انفراد. بل لتكن تلك المناظرة أمام الناس أجمعين واتفقوا مع موسى على موعد. فقالوا يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى قال موسى: **﴿موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾**[٢].

فهل يرضى أحد من حكام هذا العصر بمثل هذا التحدي ومقارعة الحجة بالحجة؟؟

فإن كان ما فعله فرعون طغياناً، فماذا نسمي ما يفعله حكام هذا العصر؟؟ انتهىٰ.

بعد بيان الطغيان تقرر الآية التالية حقيقة أخرىٰ،

(١) سورة الشعراء ٣٦.
(٢) سورة طه ٥٩.

لتشد من أزر رسول الله فتقول: ﴿إن إلى ربك الرجعىٰ﴾ لا تبتئس يا رسول الله، فإن مرد الطغاة إلى الله.

أما المقطع الثالث من السورة وقد قال فيه المفسرون أنه نزل متأخراً عن المقطعين الأوليين لأنه تناول حكاية أحد الطغاة الذين تصدوا للدعوة والداعية، فكان من البديهي أن يكون متأخراً عن بداية النزول. ولا نستطيع أن نحدد فترة التأخير، إلاّ أن ما يغلب على الظن أنها لم تكن بعيدة، حيث أن سورة المسد، وهي الخامسة أو السادسة حسب ترتيب النزول ظهر فيها أن حمالة الحطب «أم جميل» زوجة أبي لهب كانت تتصدىٰ للدعوة قبل نزول سورة المسد، حيث جاء في السورة: ﴿وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد﴾[1] وهذا ما يفيد بأنها كانت تباشر ايقاع الأذىٰ برسول الله، منذ الأيام الأولىٰ. فليس بعيداً أن يكون أبو جهل، أو الأخنس بن شريق، وهو المقصود بقوله: ﴿أرأيت الذي ينهىٰ عبداً إذا

---

(١) سورة المسد ٤/٥.

صلى﴾ ليس بعيداً أن يكون قد تصرف كما كانت تتصرف أم جميل أي منذ الأيام الأولىٰ للدعوة. ولهذا فإن ما يغلب على الظن أن الفترة بين صدر السورة ﴿اقرأ﴾ ونزول ﴿أرأيت الذي ينهىٰ﴾ أن الفترة لم تكن بعيدة. والباعث على هذه النقطة هو ما شاع على السنة الدعاة، وما ورد في سيرة سيد المرسلين، أن الدعوة كانت سرية، وأن الرسول لم يكن يدعو إلاّ من يأنس منهم رشداً. وأن الأذىٰ لم يلحق به وبأصحابه إلاّ بعد أن نزلت آية ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فالذي أردت بيانه أن الدعوة لم تكن سرية في يوم من الأيام. وأن الأفكار التي جاءت بها لم تكن مقتصرة على بيان العقيدة الاسلامية، والأخلاق الاسلامية، والعبادات، كما يزعمون بل كانت منذ اليوم الأول جهراً لا سرّاً، وضرباً للعقائد الفاسدة الموجودة، وبياناً لفساد العلاقات القائمة في المجتمع، وهجوماً كاسحاً لأئمة الكفر، وقادة الضلال. وأن تصدي زعامة قريش للدعوة كان منذ أيامها الأولىٰ، بالاغراء مرة، وبالتهديد والوعيد مرات، وبايقاع الأذى والاضطهاد على

كل من اتبع محمداً ما وجدوا لذلك سبيلا. وما هجرة الصحابة إلى الحبشة إلاّ دليلاً قاطعاً على صحة ما ذهبت إليه. فقد كانت الهجرة تلك قبل نزول آية الصدع، وقبل اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. والدليل على ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه شدّ متاعه عازماً على الهجرة فالتقاه أحد المشركين فمنعه من الهجرة قائلاً له: «ليس مثلك من يهاجر يا أبا بكر فأنت تصل الرحم، وتعين الكل، وتقوم على الزمني»، ومن المسلّم به أن آية الصدع قد نزلت بعد اسلام عمر والحمزة رضوان الله عليهما.

وسبب نزول سورة المسد كما سيأتي في حينه خير دليل على أن السريّة في الدعوة لم تكن موجودة على الاطلاق. ونعود إلى المقطع الثالث من السورة وفيه يتجلى الردّ على أبي جهل سيد بني مخزوم أو الأخنس بن شريق كما في رواية أخرى.

إن هذا المقطع من السورة ﴿**أرأيت الذي ينهىٰ * عبداً إذا صلى... الآيات**﴾ حتى آخر السورة تنير الطريق

أمام حامل الدعوة لتبيّن له احتمال معاداة أقرب المقربين إليه. ونحن نذكر جواب ورقة بن نوفل لرسول الله حين عرض عليه ما رأى. فقال ورقة: «ليتني فيها جذعاً حين يخرجك قومك فأنصرك نصراً مؤزراً» قال رسول الله ﷺ: «**أوَ مخرجي هم يا عماه**» قال ورقة: «نعم، ما جاء أحد بمثل ما جئت به الا عودي»[١].

وهذا أبو جهل يطلب من رسول الله أن يمتنع عن اداء الصلاة. وقد أخبر قومه بأنه سيعفر وجه رسول الله بالتراب إن رآه يصلي. وفي اليوم الثاني، جاء أبو جهل للمسجد وكان محمد ﷺ في صلاته. فعمد أبو جهل لتنفيذ ما وعد قومه به، فلما دنا من رسول الله تقهقر بذعر واضعاً يديه على وجهه وعينيه. فقال له القوم: مالك؟ قال: كان بيني وبينه أخدود من نار ملتهبة لو اقتربت لحرقتني.

أو كانت الرواية الثانية، إن الأخنس بن شريق كان

(١) سيرة ابن هشام.

له صديق. فبلغه أنه قد اعتنق الاسلام، فذهب إليه مؤنباً وقال له: بلغني أنك قد صبأت. قال صاحبه بل أسلمت. فقال له الأخنس بن شريق: «وجهي من وجهك حرام إلاّ أتيت محمداً وفعلت به كذا وكذا».

وسواء هذه أو تلك، أو الروايتان، فإن المغزى من ذلك بيان أن حامل الدعوة عرضة لسخط أقرب المقربين إليه. فما هو المطلوب من الداعية، هل المطلوب منه المداهنة، والمراوغة؟ أم أن المطلوب هو التحدي، معتمداً على اعزاز الله له، ووعده بالنصر، تيمناً برسول الله الذي خرج يتلو على الناس قوله تعالى: **﴿كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدع ناديه * سندع الزبانية * كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾** وهل هناك أعنف من هذا الهجوم؟ وهل هناك تحدي أكبر من هذا التحدي. فبعد مخاطبة لعقله، واثارة لمشاعره، وتذكيره بأن الله يسمع ويرىٰ **﴿أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * ألم يعلم بأن الله يرى﴾** بعد هذه المخاطبة العقلية لم يلجأ إلى استرضاء المقابل أو مداهنته، أو

التذلل له. فبدلاً من ذلك كان الهجوم الكاسح بانذار شديد اللهجة، تاركاً فرصة ضيقة حادة، وإلاّ نفذ تهديده. **﴿كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية﴾** ويزيد في استفزازه له بأن وصفه بالكذب. والموصوف ادرىٰ بما وصف به. كما أنه يتحداه بأن يستعين بقومه وناديه، فقد كان ابو جهل يزعم أنه يملك أكبر نادي في قريش.

إن في هذا المقطع من السورة درساً للداعية بليغاً.

١ ـ أن يضع في حسبانه معاداة أقرب المقربين له.

٢ ـ أن يبادر القوم بمخاطبة عقولهم مع اثارة مشاعرهم.

٣ ـ ان لا تأخذه في الله لومة لائم.

٤ ـ أن يكون مؤمناً كل الإيمان أن الله معه وناصره، وأنه لو اجتمعت الأنس والجن على أن ينفعوه بشيء لم يقسمه الله له لن ينفعوه به أبداً. ولو اجتمعوا كذلك على ضرره فلن يضروه أبداً.

٥ ـ أن يتقرب إلى الله بالطاعات. وليسجد لله

تعالىٰ ليشعر أنه يعيش في كنف عزيز حكيم مردداً قول رسول الله ﷺ.

«اللهم إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي.

لك العتبىٰ حتى ترضى» انتهىٰ.

سورة القلم ﴿ن﴾

بالرغم من اتفاق المصاحف من حيث ترتيب النزول يحاول الكثيرون تفنيد هذا الأمر وذلك استناداً على المواضيع التي تناولتها السورة، وهيمنت آية الصدع على فهمهم، وما أوحىٰ به قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[1] فانطلاقاً من ذلك يحاول هؤلاء رد القول بأنها السورة الثانية يحاولوا رد ذلك دراية. إن من الخطورة والخطأ في الوصول إلى الصواب أن تضع الرأي أولاً ثم تبدأ البحث عن أدلة لدعم ذلك الرأي. والصواب في الوصول إلى الصواب. ينظر، فإذا كانت المسألة نقلية، وليس فيها ما ينافي قطعياً آخر، ينقل الباحث إلى صحة السند. فإن لم يكن هناك مطعناً في السند، أخذ الخبر سواء وافق هواه أو خالفه، بل لا يجوز رده إلى

(١) سورة الشعراء ٢١٤.

هواه، ومحاكمته على أساسه. نعم إنهم يحاولون رد ذلك بالرغم من اجماع المفسرين على ذلك كما هو مبين في الجدول المرفق، خصوصاً وأن مطلع السورة لم يترك لهم مجالاً. فقد كان المقطع الأول منها جملة واحدة محبوكة لا مجال فيها للتجزئة، كما في سورة العلق أو المدثر أو المزمل. بل إن الفقرة الأولى منها هي موضع الخلاف. فهي تشن هجوماً عنيفاً على سيد بني مخزوم، وتتوعد الكفرة المشركين. إلى غير ذلك من الأمور التي لا تتناسب مع كونها السورة الثانية. من مثل قوله تعالى: **﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾**[1].

إن الذي دفعهم إلى ذلك كما قلنا، فهمهم لقوله تعالى: **﴿فاصدع بما تؤمر﴾**[2]، وفهمهم لقوله: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**[3] فلم يستطع هؤلاء تصور العداء الذي أبداه كل من الوليد بن المغيرة وقريبه أبو جهل.

---

(١) سورة القلم ١٥.

(٢) سورة الحجر ٩٤.

(٣) سورة الشعراء ٢١٤.

وعلى كل حال، فإن ما يهمنا من الأمر إدراك المواضيع التي تضمنتها السورة. أي الأمور التي كان رسول الله ﷺ يتصدى لها. فمن المسلَّم به أنها من أوائل ما نزل من القرآن الكريم.

ولما كانت الغيرة والحسد من أشد البواعث على البغض والكراهية، فإن ما تفوه به أبو جهل إلى الأخنس بن شريق. وفي رواية أخرى إلى النضر بن الحارث حيث بيّن الدافع على هذا العداء. فقد سأله النضر بن الحارث عن رسول الله ﷺ، أهو يكذب؟ فأقسم أبو جهل أن محمداً لم يكذب في حياته أبداً ولكننا كنا وبني هاشم كفرسي رهان. أطعموا أطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تجاثينا على الركب قالوا منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذا؟ والله لن نؤمن به أبدا. وهذا يبيّن الدافع على الحقد والحسد. ومن كان الدافع عنده الحقد والحسد فإنه لا يتورع عن القيام بأي عمل يراه. وهذا ما دفعهم للتصدي للدعوة منذ أيامها الأولى، تماماً كما فعلت أم جميل، حمالة الحطب وزوجها أبو لهب. ألم يقم أبو لهب بترك

ابنتي رسول الله ﷺ بعد أن كان قد خطبهما لولديه. ولهذا لا يستبعد أبداً أن تكون فعلاً هي السورة الثانية.

ومهما يكن من أمر فإنه لم تكن الثانية إلاّ أنه من المؤكد أنها منذ أيام الدعوة الأولىٰ. والأكثر تأكيداً أنها من السور المكية. فالذي يهمنا في الدرجة الأولىٰ المواضيع التي تناولتها السور المكية والأساليب التي اتبعتها، وكيف قام رسول الله على تبليغها.

ولنعرض لما جاء في السورة. استفتحت السورة بحرف الهجاء، نون. والقلم وما يسطرون يقسم رب العزة بحرف النون، وبالقلم وما يكتب بالقلم.

فهذه هي السورة الثانية التي يشير بها رب العزة إلى مكانة العلم بالوسيلة التي يتلقى بها العلم ـ القلم ـ ففي السورة الأولى، العلق. قال: **﴿الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم﴾** وهنا يقسم بالقلم وما يكتب، ليطمئن رسول الله ﷺ، وأنه ليس بمجنون بل إنه على الحق المبين. ولو أن دعوته قلباً للموازين، وتحطيماً المعادات والتقاليد. وكان من البديهي أن يتهم بالجنون من

يقدم على تحدي العالم ليغير مجرى التاريخ ولا يملك من حطام الدنيا شيئاً سوى هذه الدعوة. سوى هذا الفكر الصادق. وهذا الخلق العظيم الذي يتمتع به.

إن العيش في الجو الإيماني يبعث في النفس الطمأنينة، ويفجر فيها الطاقات الكامنة، ويشحذ الهمم، ويشد العزائم. فكيف إن كان المخاطب هو صاحب الرسالة، شاهداً لهذا النبي ومقسماً له أنه على خلق عظيم. وفي هذا ارشاد لحامل الدعوة للعيش في الجو الايماني الباعث على الطمأنينة، والحافز على العمل لنيل رضوان الله سبحانه وتعالىٰ. ثم هناك صورة أخرى تتجلىٰ بقوله تعالى: **﴿فستبصر ويبصرون * بأبيكم المفتون﴾** وبمثل هذا، على الداعية أن يتذكر وعد الله سبحانه وتعالى له بالنصر. **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾**(١) فالداعية المتطلع للنصر وعودة الاسلام للحياة، عليه أن يكون على يقين بأن الله سبحانه وتعالى، هو معينه وناصره

(١) سورة الروم ٤٧.

وليمضي الداعية في تحدي الشرك والكفر والضلال. فلا يداهن ولا يداجي ولا يخادع. وقد لمسنا هذا الأمر أكثر من مرة إذ تعمد بعض الفئات للتقارب مع السلطات الحاكمة، يزعمون أنهم يستفيدون من هذا التقارب، فانهم يقومون ببناء تكتلهم، وتنمية تنظيمهم، مستغلين سكوت السلطة عنهم. وقد قصر نظرهم عن ادراك خطورة مثل هذا الأمر، وقد اكتوت بعض هذه التكتلات بنار هذا الأسلوب، ومع ذلك فلم تع الدرس، ولم ترعوي عن سلوك هذا الأسلوب حتى الآن. والله سبحانه وتعالىٰ يحذرنا بعبارة صريحة **﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾** فالحذر الحذر من تصديق السلطات وقبول وعودهم.

وأما الصورة الثانية في هذا المقطع من السورة. فهي صورة الحاكم المتغطرس الجبار من الذين لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمة، وهم ـ ولله الحمد ـ كثر. منهم من أسفر عن وجهه فكان نسخة عن الوليد بن المغيرة، ومنهم أمثال أبو جهل وأبو لهب. إلّا أننا لا نملك التعرض لأشخاصهم من حيث نسبهم، أو صفاتهم الشخصية. فلا

نقول أن فلاناً أصله يهودي، وفلان أصله كذا وصفته كذا. ولكن علينا أن نكتفي بذكر ما يقوم به من مؤامرات ضد هذه الأمة، ومحاربته لعقيدة الإسلام وأفكاره. كما أننا لا نملك أن نقرر مصيره من حيث أننا نجهل المستقبل فلا يحل لنا أن ندعي أن مصير فلان جهنم وبئس المصير. ولكننا نقول وبصريح العبارة أن من يقوم بكذا وكذا فإن جزاءه عذاب الله سبحانه وتعالى إلّا من تاب وآمن وعمل صالحاً. فإن مآله إلى الله سبحانه، وقد مر معنا كيف توعد الله سبحانه وتعالىٰ من ينهى مسلماً عن الصلاة فقال تعالى: **﴿كلا لئن لم ينته * لنسفعاً بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة﴾**[1]. بينما يقرر الله سبحانه وتعالى حقيقة الوليد بن المغيرة وهو العالم به **﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾** وهذا أمر لا يعلمه إلّا أمه والراعي والله سبحانه وتعالى. كما أن الله سبحانه وبيده الأمر يقول: **﴿سنسمه على الخرطوم﴾**. أما نحن فلا نملك معرفة مصير أي من هؤلاء الطغاة.

---

(١) سورة العلق.

إذن في هذا المقطع من السورة وصلنا إلى نتائج أربع.

- العلم والمعرفة بما نريد. والعيش في الجو الإيماني بربط أفكارنا بعقيدتنا.
- عدم المداهنة أو الركون إلى الذين ظلموا. بل الدعوة صريحة متحدية كل شيء.
- مهاجمة أئمة الكفر سواء أكانوا حكاماً أو زعماء أو قادة أحزاب مضللين.
- المقارنة بين خلق رسول الله ﷺ إذ أقسم ربه أنه على خلق عظيم، بينما ذكر من صفات عدوه.

١ ـ حلّاف ـ كثير الحلف، ولا يحلف كثيراً إلاّ من يشك بتصديق الناس له. لأنهم عهدوا منه الكذب.

٢ ـ مهين ـ لا يحترم نفسه، ولا يصدق الناس قوله فيضطر للحلف.

٣ ـ هماز ـ يسير بالغيبة بين الناس ليفتنهم ويوغر صدورهم على بعض.

٤ ـ مشاء بنميم ـ يسعى بالنميمة بين الناس.

٥ ـ مناع للخير ـ يمنع الخير عنه وعن غيره، وجماع الخير هو الإيمان، فقد كان ممتنعاً عن الإيمان ومانعاً لغيره عن الإيمان، وكان يتهدد أولاده وعشيرته إن أحس أن أحداً منهم يتردد على رسول الله ﷺ.

«ألا يشبه بموقفه هذا موقف جميع الحكام ـ حكام المسلمين ـ الذين وضعوا التشريعات القانونية لمنع الناس من حمل الدعوة، وفرضوا العقوبات المختلفة على من يخالف أمرهم».

٦ ـ معتدٍ ـ متجاوز للحق والعدل. ألا تعطي هذه الكلمة صورة صادقة عن أئمة الكفر.

٧ ـ أثيم ـ لا يتورع عن ارتكاب المعاصي والآثام.

٨ ـ عتل ـ جبار، غليظ القلب، قال أبي الدرداء رضي الله عنه: «العتل كل رغيب الجوف وثيق الخلق، اكول شروب، جموع للمال، منوع له».

٩ ـ زنيم ـ ابن زنىٰ.

وقصة ذهابه لوالدته مشهورة، إذ قال لها وهو شاهر

سيفه في وجهها لقد وصفني محمد بصفات أعرفها بنفسي، ولكنه وصفني بأني زنيم، فاصدقيني، وإلاّ. فأنا أعلم أنه صادق. فأجابته والدته: بأن أباه كان عنيناً، فطلبت من الراعي أن يواقعها للحفاظ على أموال جده، فكان هو ثمرة هذا اللقاء بين والدته والراعي.

ومن كان هذا خلقه وأصله ليس غريباً عليه هذا العداء والتصدي للدعوة منذ يومها الأول. وليس غريباً عليه أن يقول عن أية كلمة من القرآن هذه من أساطير الأولين.

وأما المقطع الثاني من هذه السورة ﴿**إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون. . .**﴾ الآيات. إلى قوله تعالى: ﴿**كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾ تلك قصة كانت معروفة لدىٰ قريش كما يقول بعض المفسرين. إلاّ أن القصة تبيّن أن أصحاب الجنة بيتوا أمراً عزموا فيه على قطاف ثمار جنتهم دون أن يحس بهم أحد، كيلا يأتي الفقراء والمساكين فيأخذوا من الثمار. وتقول كتب

التفسير أن أصحاب الجنة هؤلاء ورثوا تلك الجنة عن أبيهم، وقد كانت سيرة أبيهم في جنته سيرة حسنة، فقد كان يأخذ منها ما يكفيه لسنته ثم يوزع ما تبقىٰ بين الفقراء والمساكين وكان أبناؤه لا يجرؤون على الاعتراض على سيرته، فلما توفاه الله وانتقلت ملكية الجنة إليهم، ظهر حقدهم المخزون في صدورهم منذ عهد أبيهم، فمكروا مكرهم، وعند الله مكرهم، ولم يفطنوا أن الله لهم بالمرصاد. فجاؤوا جنتهم فإذا هي فحمة سوداء. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وبدأ الندم عليهم لما بيتوا في أنفسهم، ولكن بعد فوات الأوان. ندم حيث لا ينفع الندم. هذا العذاب النفسي، هذا الشقاء بعينه، هذه الصدمة العصبية أشد وقعاً عليهم من ضرب السياط. ولذلك قال تعالى: ﴿**كذلك العذاب، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾ فأين وجه الربط بين كفار مكة وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة وبين أصحاب الجنة؟ نعم إنه بالمثال يتضح المقال، وقد زخر القرآن الكريم بالأمثلة: ﴿**ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون**﴾

إن المثال إنما يأتي لتقريب المعنى المراد إلى ذهن السامع بما يناسبه من الأمثلة. فقد يأتي المثال لتصوير المعنوي بالتجسيد المادي، أو تجسيد الروحي بالمادي، أو تقريب الغائب بالمشاهد وهكذا فالمثال لا بد وأن يحمل صورة تقريبية لما يريد توضيحه للمخاطب. وجاء في المثال: **﴿انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾** فالخطاب لأهل مكة، واستعمل فيه الكاف اداة التشبيه والبحث الآن عن وجه الشبه. والذي أراه في ذلك. أن أصحاب الجنة قد ورثوا هذه النعمة بلا جهد منهم ولا عمل ولا تفكير، منّة ومنحة من الله سبحانه وتعالى، فجحدوها متناسين أنها نعمة من عند الله. وأن المال مال الله، وأن المساكين عيال الله. ووضع المال تحت أيديهم استخلافاً لوضعه حيث أمر الله، حيث تناسوا ذلك عمد صاحب المال إلا اتلافه فأورثهم الحسرة في نفوسهم وندموا على ما فعلوا، وأنابوا إلى ربهم وقالوا: **﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾**. أما أهل مكة فقال لهم: **﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾**

إذن فهناك ابتلاء لقريش، لأهل مكة للناس كل الناس. فما هو هذا الابتلاء. كان ابتلاء أصحاب الجنة نعمة من الله فكفروها، فهل هناك نعمة أكبر من نعمة الاسلام ابتلىٰ بها الله سبحانه قريش وأهل مكة والناس أجمعين، بل العالمين. فورود هذه القصة تحذير لهؤلاء الناس، وليعلموا أن هذه النعمة المهداة ليست إلاّ ابتلاءً لهم فإن رعوها حق رعايتها فآمنوا بها، وحملوها للناس، فتلك النعمة الكبرىٰ لهم إذ سيصبحون سادة الدنيا، وإن جحدوها وكفروا بها فإن مصيرهم كمصير أصحاب الجنة حسرة في نفوسهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون، عذاب الآخرة أكبر لمن أصر على كفره. وتمادى في عناده مثل الوليد بن المغيرة وأبو جهل وأما من تراجع عن عناده وكفره بعد أن رأى بعينه عزة الإسلام وانتصارات المسلمين، فآمن وحسن إسلامه ولكن الحسرة بقيت في صدره فترة طويلة في حياته الدنيا.

إن هذه الصورة ما زالت ماثلة أمامنا فقد بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ، فما زال هناك أمثال الوليد

وأبو جهل، وما زال هناك من اتباعهما. وما زال هناك من يرقب ويتمنى عودة الإسلام للحياة، فما زال الابتلاء قائماً كما ابتلي أصحاب الجنة. ويوم يمنّ الله على المؤمنين العاملين بالنصر سيكون ذلك حسرة في قلوب القاعدين والمتقاعسين. ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله. بل هو القائل **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾**(١).

أما الجزء الأخير من السورة فإنه بدأ بتقرير حقيقة **﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾**.

ويتوجه بالخطاب العنيف لأهل الكفر والضلال بأعنف هجوم مبتدئاً بالتساءل الاستنكاري **﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون أم لكم كتابٌ فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون * أم لكم أيمانٌ علينا بالغةٌ إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون * سلهم أيّهم بذلك زعيم * أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم**

---

(١) سورة الروم ٤٧.

إن كانوا صادقين * يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾.

ومن الغريب أن يرى بعض المفسرين أو كتاب السيّر أن الدعوة بدأت هينة لينة، وما زالت تتوددالناس حتى نزلت آية الصدع التي هيمنت على أذهان الناس. من الغريب أن يرى الناس ذلك وما من آية إلاّ هي أعنف وأشد من أختها. وما من آية أخفاها رسول الله أو أخرها عن موعد نزولها. **﴿ما لكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾**.

ففي هذه السورة يوجه انذاراً عاماً للجميع، لجميع المكذبين. بينما في سورة المدثر يوجه الانذار إلى الوليد بن المغيرة بشكل خاص. فهنا يتوجه بالانذار بالقول: **﴿ذرني ومن يكذب بهذا الحديث * سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إنّ كيدي متين﴾** بينما يقول في سورة المدثر: **﴿ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً . . . .﴾** الآيات وكلتاهما من أوائل ما نزل من القرآن الكريم.

وتختم السورة بشد عزيمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتأمره بالصبر فإنه سيتعرض إلى الأذى. وسيتعرض إلى التكذيب والإعراض فلا ييأس ويعمل كما عمل يونس بن متى، ولو أن الناس جميعاً تصدوا إليك واتهموك بشتى الاتهامات. فاصبر، فهذا الكلام موجه لكل داعية يدعو إلى الله. وتوجيه الاتهامات هي أبسط الوسائل والأساليب في معارضة الناس له، فتلك سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً. أما القول بأنها نزلت متأخرة لقسوة المواضيع التي فيها. فيكفي أن ننتبه إلى قول ورقة بن نوفل حين عرض عليه رسول الله ما رأى فقال ورقة: «إن هذا الناموس الذي كان يتنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً حين يخرجك قومك فأنصرك نصراً مؤزراً» قال رسول الله ﷺ: **«أو مخرجي هم يا عماه»** قال ورقة: «نعم. ما جاء أحد بمثل ما جئت به الا عودي». نعم إن ورقة كان على حق. وتصح أن تبقى كلمته نبراساً لكل داعية، فلا يضجر ان عاداه الناس أو

عادته عشيرته أو عاداه أهله وذووه، بل ابنه أو أبوه. فهذا أبو بكر أول من آمن برسول الله ﷺ وأخلص له كل الاخلاص، ولم يكن عمر ابنه عبد الرحمن قد تجاوز الخامسة عشرة. وكم حاول هدايته فلم يفلح **﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾**(١) فبقي على كفره وعداته لوالده وقد اشترك مع الكفار في معركة بدر. كان أبوه وزير رسول الله ﷺ ونصيره وكان هو نصير أبو جهل وظهيره. كما أن والد أبي بكر بقي على كفره حتى فتح مكة. ففي هذا خير مثال على انك لا تهدي من أحببت وهل كان أبو بكر مقصراً في دعوته فلم يدع لها بنيه وأبيه. وهل كانت تربيته لابنه سيئة، مع أن كبار الصحابة بل العشرة المبشرة كلهم من ثمرة دعوة أبي بكر لهم. رضوان الله عليهم أجمعين. فعلى الداعية أن يتوجه بدعوته للناس لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا تكن عداوة والده له، أو والدته أو اخوته أو أبنائه عقبة في وجهه فليكن مسلماً بقوله تعالى: **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم**

---

(١) سورة القصص ٥٦.

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

(١) سورة التوبة ٢٤.

المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أيها المدثر * قم فانذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * فلربك فاصبر﴾.

ما زالت الدعوة في أيامها الأولى، وما زال الاعداد النفسي مصاحباً لهذه المسؤولية العظيمة وما زال طلب الجزم منوطاً بشدة العزم. وما زال الداعية بحاجة إلى التوجيه، تلقفته العناية الالهية لا كما خاطبته في سورة القلم **﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وانك لعلى خلق عظيم﴾** بل بدأته بالنداء ثم بالأوامر المتتالية، فلا تهاون ولا راحة بعد اليوم. وقد استوعب رسول الله هذا الأمر فقال لزوجته خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها: **«لا راحة بعد اليوم يا خديجة»** نعم لا راحة بعد اليوم فالعبء

ثقيل، والدرب طويل، وهذه الأوامر تترى، ستة أوامر متتالية. قم فانذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر.

لم يكن الأمر بالتبليغ، مجرد تبليغ، واختيار من يأنس منهم رشدا، أو من يرىٰ فيه القابلية على قبول الدعوة، بل الأمر بالانذار. ولهذا وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا في صبيحة يوم من الأيام وأخذ ينادي: واصباحاه، حتى اجتمع عليه الناس كل الناس وسألوا ما وراءك يا محمد؟ قال رسول الله: «**أرأيتم لو قلت لكم أن خيلاً وراء هذا الوادي؟**» قالوا: ما شهدنا عليك الكذب. فقال رسول الله: «**فاشهدوا أني رسول الله إليكم بين يدي عذاب شديد**». فقال عمه أبو لهب: «تبت يداك الهذا دعوتنا» فنزلت سورة المسد التي تلي هذه السورة من حيث ترتيب النزول.

إذن فقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتنفيذ ما أمره الله به **﴿قم فأنذر﴾** فكان هذا الأسلوب الذي نفذه رسول الله أسلوباً رائعاً تاماً مستوفي شروط

الأمر الأول وهو الانذار. فالانذار لا يكون سراً، أو بشكل فردي بل لا بدّ في الانذار من توفر الجرأة والصراحة دون مداهنة أو مواربة، ولا يقتضي اللين والتلطف. وليكن الانذار بأن الله أكبر كل شيء فلا هبل ولا اللات والعزى. بل الله. الله أكبر من كل شيء. ولذلك فقد كان الانذار شديد اللهجة، فقال فاشهدوا أني رسول الله إليكم بين يدي عذاب شديد. وهكذا سار في تنفيذ الأوامر دفعة واحدة فقد اعتمد على الله سبحانه وتعالىٰ، وقطع كل حبل جاهلي بينه وبين الناس والابتعاد عن كل ما هو دنس ومحاربة كل اثم من آثام الجاهلية. وبالرغم من الفاقة التي يعانيها والعيلة التي يحياها، فعليه أن يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فلا يستكثر ما يعطي، متمثلاً بالقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
تأتي على قدر الكرام المكارم
وتكبر في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

نهض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكل ذلك معتمداً على الله سبحانه وتعالى، ومستعداً كل الاستعداد لاحتمال ما يجابهه من صد وتكذيب، ومعاداة القريب الغريب. خصوصاً وهو يرىٰ عمه أبو لهب وزوجته أم جميل يقودان الحملة ضده. فإن كان الوليد بن المغيرة وأبو جهل وأبو سفيان، والنضر بن الحارث يناصبونه العداء والتكذيب مع إيمانهم بأنه صادق، وأن ما يقوله حق، فإنهم إنما فعلوا ذلك حسداً من عند أنفسهم، وعصبية لقومهم، فكيف يكون النبي من بني هاشم. ومن هو؟ محمد بن عبد الله، الرجل اليتيم الذي تربىٰ في كنف عمه، وتزوج من خديجة صاحبة الثراء، الذي يعيش به. لم تكن النبوة تنزلت على رجل من القريتين عظيم. فالحقد والحسد والعصبية المقيته طمست على عيونهم، ورانت على قلوبهم، فإن كان هذا حالهم، فما بال أبي لهب؟ وما هي دوافعه؟ فهل كانت زوجته هي التي تقوده إلى ذلك؟ فإن كان ذلك كذلك، فمن الممكن أنها مثل أخيها أبي سفيان، عماها الحقد والحسد، أو أن خطبة ولديها لبنتي محمد بن عبد الله جعلها تخشى أن يتسوا عليها، ولذلك عمدت على تطليقهما. ومع ذلك

يبقى تصدر أبي لهب لعداء رسول الله وهو ابن أخيه أمير محيّر جداً.

إن أمراً لهذا يحز في النفس كثيراً، ويتطلب صبراً ومعاناة.

وظلم ذوي القربىٰ أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

فأين موقع الدعاة اليوم من مثل هذه الأمور. والكثير منهم ممن مضى عليه بضع سنوات وهو محسوب على حملة الدعوة، لا يعرف به أقرب المقربين إليه، ولا يجرؤ أن يخبر والديه بأنه حاملاً للدعوة. فإن حصل أن علموا عرضاً بذلك فإنه يحاول أن ينفي تلك التهمة عنه، فإن لم يستطع فإنه يبقى على صلته بهم لا يجرؤ على تغيير سلوكه، أو توجيه الدعوة لأحد منهم. ويتذرع بالقول أن رسول الله ﷺ بدأ دعوته سراً مدة طويلة، حتى إذا اشتدت الدعوة، وكثر الدعاة جهر رسول الله بها. وهذا لسان حال جميع الحركات التي تدعو إلى الإسلام. هذا بالنسبة للفقرة الأولىٰ.

أما الفقرة الثانية فقد كانت طرح فكرة عقيدية جديدة سبق أن أشير إليها في السور الثلاث السابقة: **﴿فإذا نقر في الناقور * فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير﴾**.

من المعروف أن أركان العقيدة الاسلامية هي: الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأساس الصراع بين الاسلام والكفر هذه العقيدة. فما هو موقف كفار مكة من ذلك كله؟

فالإيمان بالله لا خلاف فيه **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾**[1] وإنما الخلاف فهو الوحدانية فهم يستهجنون الوحدانية. ولذلك فهم يقولون **﴿أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً﴾**[2].

كما أن الخلاف قائم حول نبوة محمد، فالحقد والحسد أعمىٰ بصائرهم. ويشتد الصراع على هذا القرآن. وها هو محمد رسول الله يتحداهم به.

---

(١) سورة لقمان ٢٥.

(٢) سورة ص ٥.

وفي الفقرة التي نحن بصددها يطرح فكرة جديدة تحمل معها التهديد والوعيد. تلك الفكرة التي تشير إلى اليوم الآخر، وما سيصيب الذين كفروا في ذلك اليوم، تلك الفكرة التي استأثرت بمئات الآيات والأمثلة لتقريبها من الأذهان. كيف سيبعث الناس من قبورهم؟.

ومن هنا أقول إن أركان العقيدة عند المسلمين اليوم ثابتة راسخة بالرغم مما لحقها من القساوات إلّا أنها مركزة في عقولهم وقلوبهم، تجري فيهم مجرى الدم، ولكن، كعقيدة روحية. فقد أهملت اهمالاً تاماً كعقيدة سياسية. آمن الناس بالله رباً وبالاسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن اماماً، والتزمت جمهرتهم للآن بالعبادات، والأخلاق، والزواج والطلاق. واستبعدوا أحكام الدولة والجهاد، وأحكام العقوبات والاقتصاد، حتى تلاشت من أذهان الناس أو كادت، ومن بقي في نفسه شيء منها يرىٰ استحالة اعادتها للحياة. حتى الفئات الداعية لعودة الاسلام للحياة قد أهملوا البحث في أحكام اقامة الحدود، ورعاية الشؤون، وحماية الثغور، وحمل الدعوة

للعالم. بل إن منهم من جعل من الاسلام دعوة وطنية، أو قومية. لذا فإن نهج القرآن الكريم في الدعوة، كان التركيز على الأفكار المستهجنة، والعقائد المستبعدة، كالبعث، والحساب، والجنة والنار. فقد تناولها بمئات الآيات والأمثلة، وخصوصاً في السور المكية.

وللخائفين، أو ما يخالج النفس من تردد، أو رؤية الطاغوت وأولياء الشيطان، وهيمنتهم فها هو للمرة الثالثة. يخاطب رسوله بقوله **﴿فذرني﴾** فقال في سورة القلم **﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾** وقال في سورة المزمل **﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة﴾**. وها هو الآن في سورة المدثر يقول: **﴿ذرني ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالاً ممدودا...﴾** ففي سورة القلم كان الخطاب: **﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾** فقد جاء الخطاب عاماً لجميع الناس، لكل من يكذب بهذا الحديث. بينما في سورة المزمل يقول: **﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة وأمهلهم قليلا﴾** فكان الخطاب موجهاً إلى علية القوم، أولي

النعمة، الأغنياء من الناس، أي قادة الناس من أمثال أبي سفيان، وأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأمثالهم. بينما في سورة المدثر جاء الخطاب خاصاً. فقال: **﴿ذرني ومن خلقت وحيد * وجعلت له مالاً ممدودا * وبنين شهودا...﴾** الآيات جاء الخطاب موجهاً إلى الوليد بن المغيرة.

ولنا وقفة عند قوله تعالى: **﴿ذرني﴾**. ألا يخجلون من أنفسهم أولئك الذين يخشون الدعوة إلى استئناف الحياة الاسلامية، أو الذين تدعوهم فيقول، فماذا نفعل باسرائيل؟ وماذ نفعل بالغرب؟ وأمريكا؟ ألم يقرأوا قوله تعالى: **﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة ومَهِّلْهم قليلاً﴾**[١]؟ **﴿أليس الله بكافٍ عبده﴾** ألم يدركوا معنى قوله تعالىٰ: **﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾**[٢] لله أبوهم، إنهم يخوفوننا من اعداء

(١) سورة المزمل ١١.
(٢) سورة الزمر ٣٦.

الله، ولم يصدقوا بقوله تعالىٰ: **﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة﴾** وليس عندي والله ما أقول لهم إلاّ قوله تعالىٰ: **﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾**[١] يخوفوننا بما أشركوا، ولا يخافون أنهم أشركوا: **﴿فأي الفريقين أحق بالأمن﴾**[٢].

كانت هذه مقدمة الفقرة الثالثة من السورة، والتي توجه الخطاب فيها إلى رأس الكافرين، وامام الحاقدين، الوليد بن المغيرة، قال تعالى: **﴿ذرني ومن خلقت وحيدا...﴾** الآيات إلى قوله تعالى: **﴿سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر الآيات﴾**.

إن في هذه الفقرة دروساً عدة منها:

ـ أولاً: اعتماد الدعاة على الله سبحانه وتعالىٰ فهو الناصر والمعين كما بينا آنفاً.

---

(١) سورة الحج ١٥.
(٢) سورة الأنعام ٨١.

ـ ثانياً: التصدي لأئمة الكفر. فإن الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم، وزعيم ورئيس الجبهة المناهضة للدعوة، بل يصح أن يقال بأنه بمكانة رئيس دولة أو على الأقل أحد الحكام.

ـ ثالثاً: كشف خطط الكفار في وضعهم الأساليب والخطط لمقاومة الدعوة.

ـ رابعاً: التحدي والتهديد.

ـ خامساً: التأكيد على أن الوليد بن المغيرة من أصحاب النار، وإنه ميؤوس من إسلامه.

اجتمع رؤوس الكفر في دار الندوة للبحث في كيفية التصدي للدعوة. وهذا سوق عكاظ قد بدأ، وأن محمداً سيرتاد السوق، وسيتصل بالقبائل، ومن الممكن أن يستميل بعضها، أو أن يؤمن به البعض، لذا فلا بدّ من رسم خطة لتفويت الفرصة عليه. ورأس الاجتماع الوليد بن المغيرة. فتوجهت إليه الأسئلة عما يجب أن يقولوه للناس. فقال: قولوا حتى أسمع، فقال أحدهم: نقول عنه أنه شاعر، فقال الوليد: إن كلام محمد ليس

بشعر، والعرب جميعاً يعرفون الشعر. فقال آخر: نقول إنه ساحر. فقال الوليد: إن محمداً لا ينفث في العقد، وقال آخر: نقول عنه أنه كاهن. فقال الوليد: إن محمداً لا يتصرف تصرف الكاهن فليس له همهمة الكاهن ولا زمزمته، وقال آخر: نقول عنه أنه كذاب. فقال الوليد: ونحن نسميه الصادق الأمين. وهكذا أصاب الذهول القوم، وبدأ الهرج، فقالوا: قل أنت يا أبا الوليد، فوقف، وقطب ما بين حاجبيه وراح يفكر ويفكر، ويقطع دار الندوة ذهاباً وإياباً. تنفرج أساريره مرة، ويعبس مرة حتى استجمع كل ما تمكن منه ثم قال: «نقول عنه انه ساحر بيان، يقول كلاماً يفرق فيه بين المرء وأهله، إنه قول البشر». وانفض الاجتماع متخذاً هذا القرار. ليبدأ القوم تنفيذه وقد نسوا أو تناسوا أن الله لهم بالمرصاد. فما أن توجهوا للسوق حتى وجدوا محمداً ومن آمن معه يتلون قوله تعالىٰ: **﴿ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً. . إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر. . . إن هو إلاّ**

قول البشر * سأصليه سقر﴾ فجن جنونهم، وطار صوابهم. فهذا وصف دقيق للاجتماع الذي عقدوه، فهل أخبر محمداً أحد منهم، أم أن ما يقوله حق. وأن ربه هو الذي أخبره بذلك.

من هذه الآيات نستفيد وجوب الوعي الشديد على السياسة الداخلية وما يخطط أئمة الكفر وأعوانهم من أساليب ووسائل لمقاومة الدعوة، ونحن نرى يومياً العديد من الأساليب التي تتخذ لطعن الدعوة والدعاة، بالدعاية المضللة، والتضليل الذي يقوم به رجالات النظام، بالاضافة إلى البطش والتعذيب والتشريد والسجن ودفع الشباب في بعض الحالات إلى الخروج عن خط سيرهم، والانتقال من الاحساس للعمل، لاستنزاف طاقاتهم والوصول بهم إلى حالة اليأس، أو الوصول بهم إلى القتل، أو الاتهام بالقتل، كما هو مشاهد على الساحة الاسلامية في العالم كله.

فلا بدّ من الوعي الشديد على الدعوة والدعاة، والوعي على أئمة الكفر، وما يخططون، وما يرسمون من

أساليب لمقاومة الدعوة، أو حرفها عن مسارها على الأقل.

إننا نسمع في كل يوم دعاية، ونرى في كل يوم مكيدة. ونعلم أن وراء ذلك الكفر وأعوانه، ومع ذلك تنطلي بعض الأضاليل على الناس، وتدفع بعض الأساليب الخبيثة الكثير من المخلصين إلى ردات فعل يكون ضررها أكثر من نفعها. من ثورة الحجارة، إلى العمل المسلح، إلى سلوك الطريق الديمقراطي، إلى مهادنة الحكام، ومداهنة الكفار. فهلا أعاد المؤمنون النظر في كتابهم باعتباره الدعوة التي حملها رسول الله وصحبه.

وأما الفقرة الثانية في قوله تعالى: ﴿**سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر**...﴾ الآيات، فهي أولاً وقبل كل شيء تقطع يقيناً بأن الوليد لن يؤمن بالاسلام، وسيصلى سقر. مع أن الدعوة كانت في بدايتها. ولولا أن هذا قول رب العالمين العالم بنفسية الوليد وغيره. وإلاّ فإنه من الخطورة الجزم بأن هذا من أهل النار. فأي حرج سيجابه رسول الله، لو أن الوليد بن المغيرة أعلن أنه اعتنق

الاسلام، إعلان نفاق، ليحرج الرسول ﷺ، ويطلب منه الغاء هذه الآية التي تقرر أنه من أصحاب النار. إلاّ أن الآية هي قرار من رب العالمين الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. فلم يعلن الوليد إسلامه، مع أنه عايش الدعوة، وهو يسمع هذه الآيات تتلى عليه كل يوم، ثم يصرّ مستكبراً، كأن لم يسمعها، كأن في اذنيه وقرا. عايش الدعوة أكثر من ثلاثة عشر سنة ولم يقدم على ذلك لاحراج رسول الله، لأن الله سبحانه وتعالى حين أبلغنا بأن الوليد، ومثله أبا لهب، وأم جميل بأنهم أصحاب النار كان لا اله إلا هو يعلم أنهم لن يقدموا على الاسلام ولا حتى نفاقاً. وهذا من أروع الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله، وليس حديثاً يفترىٰ. ولكنه تنزيل من رب العالمين. هذه واحدة.

وأما الثانية، فإن الله سبحانه وتعالىٰ قال: ﴿**وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر * لوّاحة للبشر * عليها تسعة عشر**...﴾ الآيات. قال أبو جهل كما في بعض الروايات، وقيل غيره، قال أنا أكفيكم سبعة عشراً منهم،

الا تقــدرون علــى اثنيــن، وأخــذوا الآيــات بــالتنــدر والاستهزاء. وجاء الجواب من رب العالمين العالم بما في نفوسهم، السامع لما يقولون، فقال: ﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلاّ فتنة للذين كفروا. . .**﴾ الآيات.

كان في ذكر عدد خزنة جهنم ما يلي:

١ ـ فتنة للذين كفروا، وهم يتصورون أن هذا العدد قليل حتى بلغ بهم القول أنهم سيتخلصون منهم بكل سهولة، بل ان أحدهم قال إنه مستعد لملاقاة سبعة عشر من هؤلاء.

٢ ـ وبمراجعة أهل الكتاب في ذلك العدد واقرارهم به فقد ازداد الذين آمنوا إيماناً. وفي ذلك طمأنة للمؤمنين وللذين أوتوا الكتاب. مما جعل الذين في قلوبهم مرض من الكفار يقفون موقف الاستغراب على ذكر هذا العدد.

والحقيقة أنه لا يعلم جنود الله إلا هو، وما ذكر هذا العدد إلا ذكرىٰ للبشر.

ترى حين يقف حامل الدعوة اليوم ويبين بكل صراحة ووضوح أن ما يتغنىٰ به كلينتون واضرابه، بالاشادة بالديمقراطية، ومحاربة العالم من أجلها، حين يقف الداعية فيبين بكل وضوح انها فكرة خاطئة وذلك للأسباب التالية:

١ ـ لأنها تقوم على أن الشعب هو الذي يضع تشريعاته وقوانينه. وهذا قول باطل. لأن واضعي التشريع لا يمثلون الناس.

٢ ـ إن مجالس النواب (البرلمانات) لا تمثل الأكثرية، بل تمثل الأقلية، والأكثرية أعداء لها.

٣ ـ انها تقوم على اعطاء الحرية للفرد، وهذا كلام هراء، لا وجود له في أي مجتمع متحضر بل في أي مجتمع بشري. لا وجود له إلاّ من الغاب. والموجود في المجتمعات البشرية، اجازات بالعمل تتفاوت بين مجتمع وآخر.

إلى غير ذلك من نقاط فساد الديمقراطية، ألا يشكل ذلك صدمة عنيفة عند القائلين بها، ألا تدفع ذوي

الألباب للتفكير، والوصول إلى أن لإنسان لا يصلح لوضع تشريعات الناس، لما بين الناس من تفاوت وتباين واختلاف وتأثر بالبيئة والعصر.

إن بيان فساد الفكرة القائلة بأن التفكير هو انعكاس المادة على الدماغ، ألا يكفي ذلك لهز مشاعر القائلين بها ودفعهم على اعادة النظر في هذا القول، وبيان فساده إنما يعني بيان فساد ما بني عليه من أفكار ومعالجات.

﴿ليزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾.

إن ما جاء في هذه السور الأولى ليس إلاّ قواعد عامة يبنىٰ عليها سير الدعوة والدعاة منذ أيامها الأولى وحتى تبلغ غايتها وتحقق قصدها. سواء ببناء الداعية بناءً فكرياً سليماً، عقيدة وعبادة وخلقاً ومعاملة، أو من حيث التصدي للعقائد الفاسدة في المجتمع، وبيان زيفها، واظهار بطلانها أو من حيث التصدي لأئمة الكفر، وأولياء الشيطان. أو ببيان الجوانب العقدية في حياتنا، مثل بيان عقيدتنا السياسية، وبيان أن الاسلام لا يوجد في الحياة

إلا بسلطان يقيم الحدود ويرعىٰ الشؤون ويحمي الثغور ويحمل الدعوة للعالم. كما بيّنت هذه السور بعض الأساليب في بناء شخصية الفرد وبعض الأساليب في تعامل الدعوة مع خصومها وأعدائها. إن هذه السور بحق هي قواعد عامة ملازمة للدعوة في كل زمان، وكل مكان، وليست نصوصاً يتعبد بها، وانتهىٰ عملها بانتهاء السبب في نزولها، بل هي كما قلنا قواعد يتحتم على الداعية أن يتبناها ليبني عليها ما يناسب عصره، والواقع الذي يتعامل معه.

أما الفقرة الأخيرة من السورة فقد بدأت بقسم رب العالمين: **﴿كلا والقمر * والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر * انها لاحدى الكبر * نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾** الآيات.

في هذه الفقرة، توضع صورة أقسم عليها رب العالمين عما سيحصل، أقسم بزوال الليل، أي الشرك واسفار الصبح. أي ظهور الاسلام. أقسم أن هذه الآيات والسور إن هي إلا تذكرة. فكل نفس بما كسبت رهينة، فالنجاة النجاة.

صورة تنقل يقيناً عما سيحصل في الدار الآخرة. حيث يجري الحوار بين أصحاب اليمين والمجرمين صورة ترتعد منها فرائص من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ومع ذلك فإن هؤلاء القوم معرضين عن هذه التذكرة كأنهم حمر الوحش، وقد فرت مذعورة من الأسد، أو من الصياد ومنهم من يرى أنه هو الأولىٰ بأن يكون هو النبي المرتقب، وتتنزل عليه السور والآيات. والله أعلم حيث يجعل رسالته. أنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

له وللدعاة أن يصوروا للناس صورة حقيقية عما ستؤول إليه حالهم، لو منّ الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بالنصر وهل حقاً سيحققون الأمن والطمأنينة للناس، وهل حقاً أن الاسلام رحمة للعالمين، في الدنيا والآخرة، وكيف يمكن أن يوفر إليهم العيش الكريم والطمأنينة الحقه، وما هي الأحكام المتعلقة بذلك. أم أن هؤلاء الدعاة لا يعرفون عن ذلك شيئاً إلا صورة باهتة لا يستطيع أحدهم أن يتلمس حدودها، أو يعرف ابعادها.

﴿وما يذكرون إلاّ أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾.

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أيها المزمل * قم الليل الا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً * إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلا. . .﴾ الايات.

بدأت السورة بتوجيه النداء لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولكل حامل دعوة فقد جاء في صفوة التفاسير: «والفائدة الثانية، التنبيه لكل متزمل راقد ليله، ليتنبه لقيام الليل، وذكر الله تعالى» لانه ـ المتزمل ـ الاسم المشتق من الفعل، يشترك فيه المخاطب وكل من يتصف بتلك الصفة.

بعد النداء توجهت السورة بالأوامر المشددة

المحددة **﴿قم الليل الا قليلا * نصفه او انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا﴾** هذه الأوامر المشدده توجهت لكل حامل دعوة، مبينة له ما عليه القيام به في ليله، قيام الليل وقراءة القرآن بامعان وتدبر - فإنه من العجب العجاب أن أجد حامل دعوة لا يجيد قراءة القرآن مع أنه من حملة الشهادات العالية، والأعجب منه من يقضي شطر ليله أو يزيد اما في مشاهدة التلفاز وما فيه من لهو منظم. أو أن يقضي شطر ليله في سهر العبث والتلهي بأمور يستهدف منها قتل هذا الوقت الزائد في حياته. ليصل بعدها الى مرحلة نومه التي لا يصحو منها الا على دقات الساعة المؤذنة بقرب موعد عمله. لا لصلاة الليل، أو على الأقل لتأدية صلاة الفجر في وقتها، أو الذهاب للمسجد لأدائها. إن مثل هذا الداعيه لم يدرك معنى قوله تعالى: **﴿انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾** فتلقي هذا القول الثقيل وحمله يحتاج إلى النفوس العالية، والروح القوية القادرة على حمله والقيام بأعبائه. نعم إنه أمر شديدي لم يوجه لرسول الله فحسب بل لكل من

دعوة. انه أمر شديد الوطأة على النفوس، ولكنه هو الطريق القويم لتربية النفس، والاطلاع بالمسؤولية **﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلا﴾** فقيام الليل والتزود بالثقافة واستيعاب الأفكار التي عليه أنه يحملها للناس أمور ليست سهلة على النفس فهي شاقة، ولكنها هي الطريق القويم الموصل الى تربية النفس، وحملها على تحمل الشدائد، والتصدي للمصاعب، أما النهار فهو المجال الواسع لاكتساب الرزق وحمل الدعوة للناس، وخوض الصراع الفكري معهم. ولا يمكنه حامل الدعوة ذلك الا إذا كان مع الله في كل عمل يقوم به، مستعيناً به على الصعاب، فهو الملجأ الوحيد فهو رب المشرق والمغرب، فلا معين سواه. فإن حامل الدعوة الذي يريد تغيير المجتمع وتغيير العلاقات القائمة فيه، وتغيير العادات والتقاليد السائدة في المجتمع. إن من يعمل على هذا الأساس فليوطد العزم على تقبل معاداة الناس، وتحمل اذاهم، والصبر على ما سيوجه اليه من اتهامات. إن هذا الأمر الموجه لرسول الله ﷺ موجه لكل من يحمل

دعوة، فهل يستطيع الثبات من لم يعِ ما يحمل؟ وهل يستطيع الثبات وتحمل الصعوبات من لَم يلجأ إلى الله في كل لحظة من حياته؟

إن النفس الإنسانية مهما سمت لا بدّ وأن يتطرق اليها بعض الفتور، أو يعتورها اليأس، أو يصيبها القنوط، وليس ذلك غريباً أو مستهجناً، فالانسان هو الانسان، وقد قال الله تعالى في سورة يوسف: **﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا أتاهم نصرنا﴾** وقال: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم نبأ الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾**[١] فلا تتعجل بالدعاء على الأعداء والمعاندين، وكُن على ثقة بأن الله لهم بالمرصاد. ولذلك فهو للمرة الثانية يقول: **﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا * إن لدينا أنكالاً وجحيماً * وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليما﴾** وقد قال تعالى قبل ذلك في سورة القلم:

---

١) سورة البقرة ٢١٤.

﴿ذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * واملي لهم إن كيدي متين﴾ ويقول في المرة الثالثة: **﴿ذرني ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالاً ممدودا﴾** ففي المرة الأولى انذار لكل من يكذب بالقرآن، وفي السورة التي تلتها انذار لأكابر المجرمين، من الحكام والمترفين، وأما في السورة التي تلتهما، فقد كان الانذار خاصاً بالوليد بن المغيرة، وبديهي ومن على شاكلته.

ففي السورة الرابعة، حين أمره ربه بقوله يا أيها المدثر، قم فأنذر، فماذا فعل رسول الله هل انتظر، حتى اشتد ساعده، وكثرت جماعته؟ أم أنه باشر بالتنفيذ الفوري إذ بادر بالوقوف على الصفا منذ الصباح وأخذ ينادي واصباحاه، واصباحاه، حتى اجتمعت عليه مكة مذعورين قائلين ما وراءك يا محمد؟؟، فأجابهم رسول الله ﷺ بما كلفه الله به ـ الانذار ـ عليه الآن ان ينذرهم، فقال: ارأيتم لو قلت لكن أن خيلاً وراء هذا الوادي؟ قالوا: ما شهدنا عليك الكذب. قال رسول الله ﷺ: فاشهدوا أني رسول الله اليكم بين يدي عذاب شديد.

فأجابه عمه أبو لهب، تباً لك، الهذا دعوتنا؟. هذا هو حامل الدعوة، يتلقى الأمر كاملاً، ويحسمه عاجلاً. فلا يتوانىٰ، ولا يسأل عن النتائج، ولا يداهن، ولا يخادع، ولا يتزلف مع أحد. وليدع الأمر كله لله. فالله سبحانه يقول: **﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾**.

إن عملية بناء النفسيه عملية شاقة جداً، ولذلك لا بدّ من مجاهدة النفس والزامها بامور وأعمال تصقلها، وتشد من بنائها حتى تكون قادرة على مجابهة المكاره، والتعامل مع الخصوم، وهذا لا يتأتّى الا بدوام الاتصال بالله **﴿واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا﴾** فالذكر الدائم لله تعالىٰ، والانقطاع الكامل اليه، أي الاخلاص الخالص في قيامه بالدعوة، وليس ما يمكنه ان يتبادر للذهن في التبتل، أي الصوفية أو الرهبنه أو اعتزال الناس. لا ليس هذا هو المطلوب بل هو الانقطاع للدعوة فلا يشرك معها شيء، فلا مفاوضات، ولا مساومات، ولا تقارب مع كل فرد أو حركة أو دولة طمعاً في رضاه أو اكتساب عطفه.

فالله وحده هو رب المشرق والمغرب لا اله الا هو. وهو وحده الذي ينبغي رضاه. ولذلك فإن رسول الله ﷺ. يقول في حديث طويل مخاطباً ربه **«إلى من تكلني إلى قريب يتجهمني أو إلى غريب ملكته أمري، اللهم إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، لك العتبى حتى ترضى»**.

بعد هذه التربية والتطمين لحملة الدعوة، تتوجه السورة بالخطاب المباشر للناس **﴿إنا ارسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولاً...﴾** الآيات.

إنه تحذير، بل أنه وعيد وانذار. فأمر فرعون معروف لكفار مكة، بسبب مجاورتهم لليهود في الجزيرة، فما هو المصير الذي لقيه فرعون نتيجة تكذيبه لرسول الله؟ فلا يكن مصيركم مثل مصير فرعون. وإن لم نعجل لكم عذاب الدنيا فماذا أعددتم لاتقاء يوم القيامة وهوله، إنه يوم تشيب منه الولدان. إن السماء ستتشقق منه. وانه واقع لا محالة، وينتهي الإنذار بالتذكير ما زال أمامكم متسع من الوقت، فهذه تذكرة، وكل نفس بما كسبت

رهينة، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. إن السبيل إلى الله معبد لمن يشاء.

وأما المقطع الأخير من السورة، بعد أن بنيت في المقطع الأول من يجب على الداعية من أعمال حتى يتمكن من بناء شخصية قوية، بنفسية عالية. تستطيع تحمل الأعباء والصبر على المكاره.

وأما المقطع الثاني من السورة فقد توجه إلى المكذبين، بل إلى رؤوس المكذبين الأغنياء المترفين سادة القوم، فلينتظروا قليلاً، ليروا انتصار المسلمين والتنكيل بهم أو إن عاجلهم الأجل فأمامهم الجحيم وما فيه من طعام وشراب يتناسب مع مقامهم الرفيع طعام ذو غصة وعذاب اليم. ثم يتوجه بالسؤوال اليهم كيف سيتقون العذاب، كيف سيتقون اليوم الآخر ولفت نظرهم إلى ما أصاب فرعون. ومع ذلك فهو يذكرهم أن هذا الإنذار مجرد تذكرة، والباب ما زال مفتوحاً لمن يشاء.

وأما المقطع الثالث، فقد عاد بالتوجه إلى حملة الدعوة، مذكراً لهم، بأن الله سبحانه وتعالى يعلم مدى

صبركم وتحملكم على ما كلفتم به، إنه يعلم أن ظروفكم ليست متساوية واستعداداتكم ليست متساوية، والتكاليف المعيشية، أو التكاليف الرسمية ستعيق الفرد منكم عن قيام ليله نصفه أو ثلثيه أو ثلثه، فقد يكون مريضاً أو مسافراً أو مجاهداً في المستقبل، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالىٰ ورحمة منه وفضل رضي بأن تقوموا في ليلكم بأدنى قدر تستطيعون. إنه لم يرفع حكم القيام بالليل ولكنه اكتفى بما تيسر.

وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً. وأكثروا من الاستغفار. فإن الله غفور رحيم.

خاتمة

أيها الدعاة، يا حملة الدعوة المخلصون، يا أيها الذين آمنوا. إن القرآن الكريم هو الرسالة التي كلف محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغها وبيانها وشرح معانيها وتفصيل مجملها. لقد تنزل هذا القرآن على رسول الله منجماً تبعاً للأحداث، ومعالجة للوقائع الجارية، ورداً على الخصوم. فالنظرة العميقة فيه من حيث ترتيب نزوله يتبين لنا الحدث الذي كان رسول الله يتعامل معه، أو المشكلة التي كان يتصدى لها. فيتضح لنا خط سيره، وفهم سيرته ﷺ.

إن الدعاة لا يجوز أن ينظروا للسيرة النبوية ككتاب تاريخ. بل لا بد من النظر اليها من حيث أنها خط سير الدعوة، مواضيعها واساليبها، وموقف الناس منها، وموقفها من الناس، منذ اليوم الأول إلى ان انتقل رسول الله ﷺ الى الرفيق الأعلى فتفهم كما يفهم الفقيه الحكم الشرعي من يجابه دليلين متعارضين، فأول كتاب يبحث

عنه تاريخ كل منهما، فاللاحق ينسخ السابق. وهكذا.

وبالنظر في هذه السور الاربعة من السور المكية، وهي أول ما نزل من القرآن، فالنظر اليها يرى أنها قواعداً أساسية قررت منذ بداية الدعوة، واستمرارية السير عليها، ففي السورة الأولى **﴿اقرأ﴾** بداية التثقيف في فهم أمرين. الأمر الأول المبدأ والمال. أي الايمان بالله خالق الإنسان، ومرجع الإنسان إليه، والأمر الثاني فهم هذا الإنسان بمكوناته ومقوماته. وأثر المال والثراء والجاه عليه. بالاضافة الى هذين الأمرين الموقف الحدي من يقف بوجه الدعوة **﴿كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية﴾** وأما السورة الثانية (القلم) إن هذه الثقافة فيها التوجيه لحامل الدعوة والإسلوب الذي يتبعه في مخاطبة الناس وليكن على ثقة بأنه على الحق المبين، فلا يهاون ولا يداهن، ولا يخادع، ولا يسمع لأحد نصيحة من اعداء الدعوة، وبدأ بحملة عنيفة على رؤوس الكفر وأئمة الضلال. وتبين أن الخطاب موجه للناس بشكل عام لا بشكل فردي، واتصالات سريّة. **﴿فستبصر ويبصرون﴾** **﴿انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾**.

وتطمين الداعية بأن أمر الكفار موكول إلى الله تعالى. ﴿**فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**﴾.

وأما السورة الثالثة المزمل، فكانت منصبة على بناء الشخصية الاسلامية، وبشكل خاص النفسية الإسلامية لأن بناء العقلية تتولاهُ الآيات والسور، أما بناء النفسية فهو اعمال يقوم بها الانسان حتى تشتد نفسيته وتقوى على تحمل اعباء الدعوة الا أنها كذلك بنيت أن خصوم الدعوة هم أولوا النعمة فقال رب العزة ﴿**وذرني والمكذبين أولي النَّعْمة ومهلهم قليلاً**﴾.

وأما السورة الرابعة (المدثر) فهي التي بدأت بالأوامر المشددة على حامل الدعوة، والتصدي لأئمة الكفر ﴿**ذرني ومن خلقت وحيدا**﴾ وقامت بكشف ما يكيد به المشركين، وما يقوم عليه مجتمعهم من مفاسد.

هذه السور الأربعة قواعد أساسية ملازمة إلى المرحلة المكية بكاملها ﴿**والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾.